مختصر
جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

اختصره وعلق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

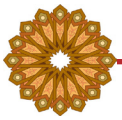

الحَدِيثُ الرَّابعُ

■ عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: حدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطْنِ أُمِّهِ أَرْبعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يُكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ إِلَيْهِ المَلَكَ؛ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأَرْبَعِ كَلِماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِهِ، وعَمَلِه، وأَجَلِه، وشَقِيٍّ أَو سَعِيدٍ؛ فوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَه وبَيْنَها إِلَّا ذِرَاعٌ، فيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ النَّار فيَدْخُلُها! وإِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فيَدْخُلُهَا!» رواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِم.

الشَّرحُ

هذَا الحديثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ؛ وتلقَّته الأُمَّةُ بالقَبولِ.

وهوَ يدُلُّ علَى أنَّ الجنينَ يتقلَّبُ -في مائةٍ وعِشرينَ يومًا- في ثلاثةِ أطوارٍ، يكونُ في كلِّ أربعينَ منها في طَورٍ؛ فيكونُ في الأربعينَ الأُولَى نُطفةً، ثُمَّ في الأربعينَ الثَّانيةِ عَلَقَةً (والعَلَقَةُ: قطعةٌ من دَم) ثُمَّ في الأربعينَ الثَّالثةِ مُضغةً، والمُضْغَةُ: قطعةٌ من لَحْمٍ، ثُمَّ بعدَ المائةِ والعشرينَ يومًا ينفخُ المَلَكُ فيهِ الرُّوحَ، ويكتبُ لهُ هذِهِ الأربعَ الكلماتِ.

وقدْ ذكرَ اللهُ في القرآنِ -في مواضِعَ كثيرةٍ- تقلُّبَ الجنينِ في هذِهِ الأطوارِ؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

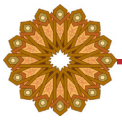

وذكرَ هذِهِ الأطوارَ الثَّلاثةَ: النُّطْفةَ، والعَلَقةَ، والمُضْغَةَ في مواضِعَ متعدِّدَةٍ من القُرآنِ، وفي موضعٍ آخرَ ذكرَ زيادةً عليهَا؛ فقالَ في سُورَةِ المؤمنينَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

فهذِهِ سَبْعُ تاراتٍ؛ ذكرَها اللهُ في هذِهِ الآيةِ لخَلْقِ ابنِ آدمَ قبل نَفْخِ الرُّوحِ؛ وكانَ ابنُ عبَّاس يقولُ: «خُلق ابنُ آدمَ من سَبْعٍ»؛ ثم يتلُو هذِهِ الآيةَ (١).

وقدْ رخَّصَ طائفةٌ من الفقهاءِ للمرأةِ في إسقاطِ ما في بطنِها ما لم يُنفَخْ فيهِ الرُّوحُ، وجعلُوه كالعَزْلِ. وهوَ قولٌ ضَعِيفٌ؛ لأنَّ الجنينَ وَلَدٌ انعقدَ، ورُبَّما تصوَّرَ، وفي العزلِ لم يوجدْ ولدٌ بالكليَّةِ.

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢١٧٢) والحاكم (١/ ٤٣٨) بنحوه.

وقد صرَّحَ أصحابُنا بأنَّه: إذَا صارَ الوَلَدُ عَلَقَةً لم يجُزْ إسقاطُه؛ لأنَّه وَلَدٌ انعقدَ، بخلافِ النُّطْفَةِ؛ فإنَّها لم تنعقدْ بعدُ، وقدْ لا تنعقدُ وَلَدًا.

• قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فوَالَّذِي لَا إلَهَ غيرُه؛ إنَّ أحدَكُم لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ ...» إلَى آخرِ الحديثِ، قيلَ: إنَّه مُدْرَجٌ من كلامِ ابنِ مسعُودٍ[1]، وقدْ رُويَ هذَا المعنَى عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -من وجوهٍ متعدّدة- أيضًا.

وفي «صَحِيح البُخَارِيِّ»، عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «إنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[2].

وفي «صَحِيح مُسْلِمٍ»، عَن أبي هُرَيرةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أَي: أنَّه ليس مِن كلام النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وإنَّما هو تعليقٌ على الحديث من كلام ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. و(الإدراجُ): هو أَن تُزَادَ لَفظةٌ في متنِ الحديثِ مِن كلامِ الرَّاوِي؛ فيظن مَن سمِعها أنَّها جزءٌ مِن ذلك الحديثِ، فيرويها كذلكَ. انظر: «الباعث الحثيث» (ص٦١).

(٢) أخرجَهُ البُخَارِيُّ، برَقمِ (٦٦٠٧).

قالَ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعملُ -الزَّمانَ الطَّويلَ- بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، ثُمَّ يُختَمُ لهُ عَمَلُه بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعملُ -الزَّمانَ الطَّويلَ- بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، ثُمَّ يُختَمُ لهُ عَمَلُه بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ»[(١)].

وفي «الصَّحيحينِ» عَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التقَى هُو والمشركونَ، وفي أصحابِهِ رجلٌ لا يدَعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلَّا اتَّبعها، يضربُها بسيفِه؛ فقالُوا: ما أجزأ منَّا -اليَومَ- أحدٌ كما أجزأَ فلانٌ[(٢)]! فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هوَ مِن أهلِ النَّارِ»! فقالَ رجلٌ من القومِ: أنا صاحبُه! فاتَّبعه؛ فجُرِحَ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوضعَ نصلَ سيفِهِ علَى الأرضِ، وذُبابَه[(٣)] بينَ ثَديَيهِ، ثُمَّ تحامَلَ علَى سيفِهِ، فقتلَ نَفْسَهُ! فخرجَ الرَّجلُ إلَى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

---

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ، برَقم (٢٦٥١)، وفيه: «الزَّمن الطويل» لا «الزَّمان الطويل».

(٢) قالَ ابنُ منظورٍ في «لسان العرب» (١/ ٦٠٢): (وفي حديثِ سَهْلٍ: «مَا أجزأ منَّا اليومَ أحدٌ كمَا أجزأَ فلانٌ»؛ أَي: فعلَ فعلًا ظهرَ أثرُهُ، وقامَ فيهِ مقامًا لَم يقمْهُ غيرُه، ولَا كفَى فيهِ كفايتَهُ).

(٣) قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» (٢/ ١٥٢): «ذباب السَّيفِ: طرفُهُ الَّذِي يُضربُ بِهِ».

أشهدُ أنَّكَ رَسُولُ الله -وقصَّ عليه القصَّةَ-؛ فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الرَّجلَ لَيَعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ فيما يبدُو للنَّاس، وهوَ من أهلِ النَّار، وإنَّ الرَّجلَ لَيَعملُ عملَ أهلِ النَّارِ فِيما يبدُو للنَّاسِ، وهوَ من أهلِ الجنَّةِ»(١).

زادَ البُخَاريُّ في روايةٍ لهُ: «وإنَّما الأعمالُ بالخواتيم»(٢).

وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فيما يبدُو للنَّاس»: إشارةٌ إلَى أنَّ باطنَ الأمرِ يكونُ بخلافِ ذلكَ، وأنَّ خاتمةَ السُّوءِ تكونُ بسببِ دسيسةٍ باطِنَةٍ للعَبْدِ لا يطَّلعُ عَليها النَّاسُ؛ من جهةِ عملٍ سيِّءٍ، ونحوِ ذلكَ؛ فتلكَ الخصلةُ الخفيَّةُ توجبُ سوءَ الخاتمةِ عندَ المَوْتِ.

وكذلكَ قدْ يعملُ الرَّجلُ عملَ أهلِ النَّارِ، وفي باطنِهِ خصلةٌ خفيَّةٌ من خصالِ الخيرِ؛ فتغلبُ عليهِ تلك الخصلةُ في آخرِ عُمرِهِ؛ فتوجِبُ له حُسْنَ الخاتمةِ.

---

(١) أخرجَهُ البُخَارِيُّ، برَقم (٤٢٠٢)؛ ومُسلِمٌ، برَقم (١١٢).

(٢) هذِهِ الرِّوايةُ عَن سَهْلٍ -أيضًا-، أخرجَهَا البُخَارِيُّ برَقم (٦٦٠٧) كما سبق قريبًا.

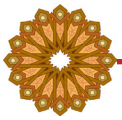

قالَ عَبْدُ العزيزِ بنُ أبي رَوَّادٍ: «حضرتُ رجلًا عندَ الموتِ يُلَقَّنُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فقالَ في آخرِ ما قالَ: هو[1] كافرٌ بما تقولُ، ومات علَى ذلكَ». قالَ: «فسألتُ عنه؛ فإذَا هو مدمنُ خَمْرٍ»، فكانَ عبدُ العزيزِ يقولُ: «اتَّقوا الذُّنوبَ؛ فإنَّها هي الَّتِي أوقعَتْه».

وكانَ سُفيانُ[2] يشتدَّ قلقُه؛ فكانَ يبكِي ويقولُ: «أخافُ أَن أكونَ في أُمِّ الكتابِ شقيًّا»! ويقولُ: «أخافُ أَن أُسلبَ الإيمانَ عندَ الموتِ»!

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقومُ طولَ ليلِهِ قابضًا علَى لحيتِه، ويقولُ: «يا ربِّ؛ قد علمتَ ساكنَ الجنَّةِ من ساكنِ النَّارِ؛ ففي أيِّ الدَّارَيْنِ منزلُ مَالِكٍ؟».

---

(١) ذلك الرجل المُحتَضَر، إنما قال عن نفسه: «أنا...»، ولكن الراوي استقبح أن يأتي بصيغة المتكلم. ومثله قول الراوي في قصة وفاة أبي طالب: «قال أبو طالب آخر ما كلَّمَهم: هو على ملَّة عبدِ المطلب». أخرجه البخاري (١٣٦٠).

(٢) هُوَ: سُفيانُ الثَّوريُّ، الأمامُ المشهورُ، توفي سنة (١٦١هـ).

ومن هُنا؛ كانَ الصَّحابَةُ ومَن بَعْدَهم -مِن السَّلَفِ الصَّالِحِ- يخافونَ على أنفُسِهِم النِّفاقَ[1]، ويشتدُّ قلقُهم وجَزَعُهم منه؛ فالمؤمنُ يخافُ علَى نفسِهِ النِّفاقَ الأصغرَ، ويخافُ أَن يَغْلِبَ ذلكَ عليهِ عندَ الخاتمةِ، فيُخرجَه إلَى النِّفاقِ الأكبرِ، كما تقدَّم أنَّ دَسائِسَ السُّوءِ تُوجِبُ سُوءَ الخاتمةِ[2].

وقدْ كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثرُ أَن يقولَ في دُعائِهِ: «يَا مُقلِّبَ القُلُوبِ؛ ثَبِّت قَلبي علَى دينِكَ»؛ فقيلَ له: يا نبيَّ اللهِ؛ آمنَّا بكَ وبما جئتَ بهِ؛ فهَلْ تخافُ علينا؟ فقالَ: «نَعَم، إنَّ القلوبَ بينَ أُصبُعَينِ من أصابعِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ»، خرَّجَه الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ[3].

---

(١) انظرْ في خوفِ السَّلفِ مِن النِّفاقِ بحثًا مطوَّلاً للمؤلِّفِ في «فتح الباري» (١/ ١٧٧)، وقدْ أشارَ المؤلِّفُ إلَى شيْءٍ مِن ذلكَ في شَرْحِهِ للحديثِ الثَّامن والأربعينَ مِن هذَا الكتابِ.

(٢) ومِن أوسعِ الكتبِ فِي ذِكْرِ الخواتيمِ: كتاب «سَكْب العبرات في القبرِ والموتِ والسَّكراتِ»، للدكتور سيِّد حسين العفَّانيِّ؛ جزاهُ اللهُ خيرًا.

(٣) أخرجَهُ أحمد (٣/ ١٢٢)؛ والتِّرمِذيُّ (٢١٤٠)، وقالَ: «وهذَا حديثٌ حَسَنٌ»؛ وصحَّحه الشَّيخُ الألبانيُّ في تخريجِ كتابِ «السُّنَّة» لابنِ أبي عاصِمٍ (٢٢٥).

وخرَّجَ مُسْلِمٌ من حديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عمروٍ، أَنَّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولُ: «إنَّ قُلُوبَ بنِي آدمَ كُلَّها بينَ أُصبعينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ كقلبٍ واحد يُصَرِّفُه حيثُ يشاءُ»، ثُمَّ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ؛ صرِّفْ قُلُوبَنا علَى طاعَتِكَ»(١).

وفي هذَا المعنَى أحاديثُ كثيرَةٌ.

❋❋❋

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ، برَقمِ (٢٦٥٤).